في نظرّيات المعنى

In Theories of Meaning

د. فاروق بكّاري

جامعة منّوبة

تونس

Faroukbaccari2023@gmail.com

في نظريّات المعنى

د. فاروق بكّاري

ملخّص:

يلعب المعنى دورا كبيرا في كلّ مستويات التّحليل اللّغويّ ويمثّل أحد المباحث الأساسيّة في فلسفة اللّغة. وقد تعدّدت نظريّات المعنى واختلفت باختلاف مناهج دراستها. لذلك اهتمّت الألسنيّة الحديثة بدراسة المعنى في اللّغات الطبيعيّة، فظهرت أربع نظريات أساسيّة: النظريّة الإشاريّة التي ترى أنّ المعنى هو ما تشير إليه.لكن فكرة وجود كلمتين مترادفتين تشيران إلى المرجع نفسه يجعل العثور على جوهر المعنى غير دقيق، والنظريّة التصوّريّة التي ترى أنّ جوهر المعنى هو الصّورة الذّهنيّة. وكان على هذه النّظرية مجموعة من المآخذ حيث أنّها تفسّر الأشياء الغامضة والمعنى بالأفكار والتّصوّرات، والنّظرية السلوكية التي ترى أنّ المعنى هو حصيلة علاقة لغويّة نفسيّة بين المثير والاستجابة، لكنها أغفلت كثيرا من الأحداث التي لا يمكن قياسها لعدم قدرتها على إنتاج استجابات أو ميولات، والنّظريّة السّياقيّة التي استطاعت أن تجد حلّا لدراسة المعنى وتجاوز مآخذ النّظريّات الموازية لها في ميدان نظريّات دراسة المعنى. فتناولت دراسة المعاني وفق سياقاتها المتنوّعة.

الكلمات المفاتيح: المعنى - الدّلالة – اللّغة – اللّسانيات – نظريّة – السّياق - المرجع – الكلام.

Abstract:

Meaning plays a major role at all levels of linguistic analysis. It represents one of the basic topics of language. Theories of meaning have varied and differed according to the methods of studying them. Therefore, modern linguistics meaning in natural languages which results in the emergence of our basic theories. Denotational Theory considers meaning as the indication. However, the conception of having two synonyms denoting the same reference renders the essence of meaning inaccurate. Ideational Theory looks at the meaning as the mental image, but it was severely criticized, as it interprets ambiguous things and meanings by ideas and conceptions. Behavioral Theory considers that meaning is the outcome of psycholinguistic relationship between the stimulus and response. On the other hand, it neglected many events that are unmeasurable for not generating responses or inclinations. Contextual Theory managed to find a solution for studying meaning and overcoming flaws of similar theories in the realm of meaning theories. It addressed meaning in various contexts.

Keywords: Meaning – Signifiance – Connotation – Language – Linguistics – Theory – Context - Reference-Speech**.**

1- مقدّمة:

إنّ تحديد متصوّر المعنى أمر عسير. فهو من المسائل التي عكف على دراستها غير علم، فقد اهتمّ بها الفلاسفة والمناطقة وعلماء النّفس وعلماء اللّغة، وكان لكلّ منهم شرعة ومنهاج. وقد اختلفوا وسائل وغايات ورؤى وأصولا ومبادئ ومسلّمات. ولا مناص من أن يقود هذا الاختلاف إلى أن يكون متصوّر المعنى ذا معان متعدّدة يكتنفها كثير من الغموض والتّعقيد والخلط حيث يقول جورج مونان «يكفي أن نقابل بين تعريف هذه الكلمات نفسها في المعاجم الكبرى: دلّ ودلالة ومدلول، لنلاحظ أنّ الأمر بقي مدّة طويلة بعيدا عن الوضوح، وأنّ دراسة كتب الدّلالة الحاليّة تبرهن على أنّه لم يصبح بعد واضحا تماما...إنّ الأراء وكذلك الأعمال في هذا الفرع من فنّنا مازالت تشعر في كثير من الأحيان بأنّنا إزاء برج بابل، وهو ما يجب الاعتراف به صراحة»[1].

وليس لهذا الوضع إلاّ أن يؤثّر تأثيرا سلبيّا على الدّراسة الدّلاليّة «فمن الأمور المعتادة في الوسط اللّسانيّ أن يتساءل المرء إلى يومنا هذا عن علم الدّلالة أله موضوع متجانس؟ وهل يخضع هذا الموضوع لمقتضيات التّحليل البنيويّ؟»[2]. وقد عبّر كثير من علماء اللّغة – وهم يؤسّسون اللّسانيات- عن ضجرهم من لفظ "المعنى" ومن سوء استعماله وما يوقع فيه من لبس وما يؤدّي إليه من خلط. ودعوا . من ثمّ- إلى اجتناب استعماله. ولكنّ للمعنى أهمّيّة بالغة في اللّغات الطّبيعيّة، فإن هي إلاّ أنشطة صوتيّة دالّة، ولا سبيل إلى أن يحيط اللّسانيّون بكنهها إن هم أهملوا دراسة المعنى. ولذلك فقد فتحوا بينهم لهذه الدّراسة بابا، فظهرت غير نظريّة من نظريّات المعنى. وسنقتصر في هذا البحث على أربع منها وهي: النّظريّة الإشاريّة ونظريّة المعنى في ضوء الدّليل اللّسانيّ والنّظريّة السّلوكيّة والنّظريّة السّياقيّة.

2- النّظريّة الإشاريّة:

تقوم هذه النّظريّة على موقف "إشاريّ" أو "مرجعيّ" يعدّ اللّغة جدولا من الكلمات يطابق فيه كلّ "شيء " من "أشياء" العالم الخارجيّ "اسما" من "الأسماء". وينشأ عن هذه المطابقة الوثيقة بين عالم "الأشياء" وعالم "الكلمات" أن يدلّ الاسم على الشّيء وأن يكون الشّيء دلالة على الاسم. والمعنى في هذا التّصوّر هو العلاقة بين الشّيء والاسم. وتُماهي هذه النّظريّة بين الاسم والمرجع، فمعنى الكلمة هو ما تسمّيه وترجع إليه. وإذا كان هذا التّصوّر موغلا في القدم - إذ هو تصوّر أرسطيّ- فإنّ التّفكير اللّسانيّ الحديث لم يطرحه طرحا عميقا، فتعليم المفردات في اللّغات الأجنبيّة يمكّن له في الأعمّ الأغلب ويعتبر أنّ معنى كلمة ما إن هو في واقع الأمر إلّا وصف الشّيء الذي تدلّ عليه هذه الكلمة. وهكذا يقع الخلط بين البنية المعجميّة وبنى الواقع، وهما حقيقتان متغايرتان.

وقد تعرّضت نظريّة المعنى الإشاريّة إلى غير انتقاد، فهي نظريّة لا يمكن أن يدعى لها العموم. وإذا كان من الصّحّة أن يقال إنّ من الكلمات ما يسمّي الأشياء ويرجع إليها فإنّ كثيرا منها لا يقوم بهذه الوظيفة، فالنّظريّة

1- مونان (جورج): مفاتيح الألسنيّة، تعريب الطيّب البكّوش، ط1، منشورات الجديد، تونس، 1981، ص119-120.
2- Greimas (Algirdas Julien): Sémantique struturale, Paris, Payot, 1966 , p6.

لا تستحقّ أن توسم بـ "الإشاريّة" وسما شاملا، حيث يقول دافيد كريستال «هناك عدد كبير من الكلمات في اللّغة لا نراها تسمّي الأشياء أو ترجع إليها كالأفعال: يسأل أو يجد، وكالصّفات: صعب أو عامّ، وكالأسماء: ثبوتيّة أو تقليد»[1]. بل إنّ كريستال ليذهب إلى أنّ الكلمات التي تشير إلى الأشياء وتسمّيها تمثّل في حقيقة الأمر شاذّ القاعدة، «فالحقيقة أنّ معظم الكلمات في اللّغة تبدو كأنّها غير قادرة على أن تربط الأشياء أو ترجع إليها في أيّة طريقة من الطّرق» [2]، مثال ذلك أنّ "لا" و "لكن" و "أو" وما شابهها لا تشير إلى الشّيء ولا تحيل عليه وأنّ لها مع ذلك معنى لا يشكّ فيه المتكلّم والسّامع. ومن كلمات اللّغة ما يدلّ في أصل الوضع نفسه على نفي المرجع وأنّه لا وجود له لا في الواقع ولا في الخيال، أي لا في الأعيان ولا في الأذهان، حيث يقول أبو حاتم الرّازي «إنّا إذا قلنا "معدوم" و "منفيّ" و "اللّاثبوت" و "اللّاتحقّق"، فههنا الأسماء موجودة والمسمّيات معدومة»[3].

ومن المآخذ على النّظريّة الإشاريّة أنّها تستند في دراسة المعنى إلى الأشياء الخارجيّة وتربط المعنى بهذه الأشياء، وذلك يقتضي معرفة دقيقة بها وبخصائصها، والمعرفة الإنسانية لا تفي بهذا المطلب في كلّ حال.

أمّا القول أنّ معنى الشّيء هو الشّيء نفسه فقول فاسد من وجوه كثيرة، فاعتبار المعنى هو الشّيء الخارجيّ يؤدّي إلى القول بترادف كلمتين تشيران إلى شيء واحد، وهذا غير مطّرد. فأسماء الله الحسنى تشير كلّها إلى مرجع واحد هو الله جلّت عظمته، ولكنّها ليست مترادفة، فـ "الرّحيم" غير "البديع"، بل إنّ معاني بعضها لتناقض معاني بعض، فمعنى "المحيي" نقيض معنى "المميت".

وتقتضي المماهاة بين المعنى والشّيء الخارجيّ اشتراكهما في الخصائص نفسها وأنّ ما يضاف إلى أحدهما يضاف إلى الآخر. وليس ذلك بصحيح في حقيقة الأمر. ويضرب فودور على ذلك مثلا بالتّفّاحة، فالتّفّاحة مرجعا غير التّفّاحة معنى، فالتّفّاحة تُؤكَل ولا يُؤكَل المعنى، والمعنى يتعلّم ولا يمكن أن تتعلّم التّفّاحة، ومعنى التّفّاحة يشتمل بداهة على معنى التّفّاحات ولكنّ التّفّاحة لا تشتمل على التفّاحات[4].

ويأتي علماؤنا القدامى بغير حجّة على أنّ الاسم غير المسمّى. ومن هذه الحجج أنّه يتبيّن لنا «في أصل الوضع أنّ الاسم ليس هو المسمّى وذلك أنّك تقول: سمّيت هذا الشّخص بهذا الاسم، كما تقول: حلّيته بهذه الحلية، والحلية لامحالة غير المحلّى، فكذلك الاسم غير المسمّى»[5]. ولا سبيل إلى جعل الاسم والمسمّى لفظين مترادفين في معنى واحد.

وإذا كانت هذه الحجّة تستند إلى اللّغة، فإنّ من الحجج ما يستند إلى علماء اللّغة وأهل النّحو على وجه الخصوص، وإلى إمام النّحاة سيبويه على وجه أخصّ. فهو في قوله «الكلم اسم وفعل وحرف» [6]قد صرّح أنّ

1- كريستال (دافيد): علم الدلالة، تعريب مازن الوعر، مجلّة علامات في النقد، ج 21، مج 6، جدّة، سبتمبر، 1996، ص 262.

2- المصدر السابق، الصفحة نفسها.

3- الرازي (فخر الدين): لوامع البيّنات، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، ط1، دار الكتاب العربيّ، بيروت، 1984، ص 23.

4- Fador (Jerry) : Semantics, New York, Crowell ,1977, p14.

5- السهيلي (أبو القاسم): نتائج الفكر في النحو، تحقيق محمّد إبراهيم البنّا، ط1، جامعة قار يونس، بنغازي، 1978، ص 40.

6- سيبويه: الكتاب، ج، ص 6.

الاسم كلمة فكيف تكون الكلمة هي المسمّى، والمسمّى إنّما هو شخص...وكذلك نصّ في أكثر من ألف موضع في كتابه على أنّ الاسم هو اللّفظ الدّالّ على المسمّى، لأنّه متى ذكر الخفض أو النّصب أو التّنوين أو الألف واللّام وجميع ما يدخل على الأسماء أو يعتريها من الزّيادة والحذف، حتّى يكون بعضها ثلاثيّا وبعضها رباعيّا وبعضها خماسيّا إلى غير ذلك ممّا يذكر سيبويه وجميع النّحويّين أنّه يعتري الاسم ويختصّ به فلا تعلق بشيء من ذلك بالمسمّى الذي هو الشّخص[1]. وبين هذه الحجّة والحجّة التي جاء بها فودور ما لا يخفى من المناسبة، فمثل الاسم والمسمّى كمثل التّفّاحة معنى ومرجعا.

وربّما استندت حجّة المماهاة بين الاسم والمسمّى إلى العقل والنّظر. فالتّسمية في عرف اللّغة معناها وضع الاسم للمسمّى، «فلو كان الاسم هو المسمّى لكان وضع الاسم للمسمّى عبارة عن وضع الشّيء لنفسه، وذلك غير معقول» [2] والمسمّى هو الشّيء ذاته «فلو كان الاسم عبارة عن ذات الشّيء لزم كون الشّيء اسما لنفسه وذلك غير معقول»[3].

ولقد تجاوز بعض العلماء البرهنة على أنّ الاسم غير المسمّى إلى الرّدّ على من اعتقد غير ذلك. فقد خصّص أبو القاسم السّهيلي في "نتائج الفكر" فصلا يدحض فيه شبه القائلين أنّ الاسم هو المسمّى [4] وذكر أبو حاتم الرّازي في الفصل الأوّل من "لوامع البيّنات" هذه الشّبه وأجاب عنها[5].

ومثار الغلط في المسألة أنّ القائلين أنّ الاسم هو المسمّى قد استندوا إلى «ظواهر من القرآن والأثر وأبيات من كلام العرب خفي القصد منها على كثير من أهل البصر» [6]، فهذه الأبيات وتلك الظّواهر هي إذن حجّة عليهم لا لهم. أي أنّها دليل على أنّ الاسم غير المسمّى وأنّ قولهم نتيجة لفهم خاطئ وليس له- والحال هذه- إلّا أن يكون خاطئا، وكلّ إناء بما فيه يرشح.

ومن العلماء من يردّ هذا الغلط إلى الإلف والعادة، فإنّ المسمّى يعتاد الاسم ويألفه وتبلغ هذه الألفة وتلك العادة مبلغا من القوّة تؤول بالمسمّى إلى أن يما هي بين نفسه وبين اسم نفسه. وفي هذا السّياق يقول أبو حيّان التّوحيدي وأبو علي مسكويه «إنّ المعاني تلزمها الأسماء ويعتادها أهل اللّغات على مرّ الأيّام حتّى تصير كأنّها هي، وحتّى يشكّ قوم فيزعمون أنّ الاسم هو المسمّى، وحتّى زعم قوم أفاضل أنّ الأسامي بالطّباع تسير إلى مطابقة المعاني...واضطرّ لأجل هذه الدّعوى أن يشتغل كبار الفلاسفة بمناقضتهم ووضع كتب في ذلك، فليس بعجب أن يألف إنسان اسم نفسه حتّى إذا غيّر ظنّ أنّه إنّما يغيّر هو، وإذا دعي بغير اسمه فإنّما دعي غيره، بل يرى كأنّما بدّل به نفسه»[7].

1- السهيلي (أبو القاسم): المصدر السابق، الصفحة نفسها.

2- الرازي (فخر الدين): لوامع البيّنات، ص 23.

3- المصدر السابق، الصفحة نفسها.

4- السهيلي (أبو القاسم): نتائج الفكر في النحو، ص 41.

5- الرازي (فخر الدين): لوامع البيّنات، ص ص 24-29.

6- السهيلي (أبو القاسم): نتائج الفكر في النحو، ص 42.

7- التوحيدي (أبو حيّان) و مسكويه (أبو علي): الهوامل والشوامل. تحقيق أحمد أمين وأحمد صفر، القاهرة، 1951، ص 274

وهكذا يكون للنّظريّة الإشاريّة جذور في التّراث العربيّ، وأنّ العكوف على دراسة ما جاء به العلماء من ذلك لحقيق أن يستجلي غير جانب من جوانب المنوال الدّلاليّ العربيّ.

ومهما يكن من أمر النّظريّة الإشاريّة للمعنى فقد كان لها فضل لا ينكر وهو أنّها قد وجّهت عناية اللّسانيّين صوب دراسة المرجع، فقد كانت قضايا إحالة العلامات على العالم لا تثار إلّا من حيث هي مجال يجب اجتنابه، فالتّعلّق من دراسة هذا المجال بسبب يفتح على الدّراسة باب الحدسيّة. وهكذا نجد أنّ المعجم الموسوعيّ لعلوم اللّسان، تأليف تودوروف وديكرو، يحتوي على فصل عنوانه الإحالة[1]، وهي مبحث لا تهتمّ به عادة نظائره من المعاجم السّابقة عليه. ولا شكّ أنّ للمناطقة وفلاسفة اللّسان أثرا إيجابيّا في توجيه عناية اللّسانيّات نحو قضايا الإحالة، وأهمّ هؤلاء فريجة وهيسرل وبيرس وريسل.

3- المعنى في ضوء العلامة اللّسانيّة:

إذا كان فردينان دي سوسّير يعدّ أب اللّسانيّات، فإنّه يعدّ أيضا أبا علم الدّلالة الحديث،«فهو الذي أنشأ- بنظريّته حول العلامة اللّسانيّة – علم الدّلالة العصريّ»[2]. والعلامة اللّسانيّة عند سوسّير كيان تجريديّ عمدته الصّورة السّمعيّة أو الدّالّ، والمتصوّر الذّهنيّ أو المدلول، ولذلك «فإنّ العلامة اللّسانيّة لا تجمع بين شيء واسم بل بين متصوّر ذهنيّ وصورة سمعيّة»[3].

ويوازن دي سوسّير – رغبة في الإيضاح- بين العلامة اللّسانيّة وبين الورقة، فإنّه «يمكننا أن نشبّه اللّغة بورقة يمثّل الفكر وجهها والصّوت قفاها: فلا نستطيع أن نقطع الوجه دون أن نقطع في الوقت نفسه القفا، وكذلك الأمر بالنّسبة إلى اللّغة فلا تستطيع فيها عزل الصّوت عن الفكر ولا عزل الفكر عن الصّوت» [4]. فالمعنى في ضوء هذه الموازنة فعل تقطيع متواقت، «فكلّ عنصر لغويّ هو بمثابة عضو صغير فيه تستقرّ فكرة ما في صوت ما وفيه يصبح صوت ما دليلا على فكرة ما»[5]. فالعلاقة بين الدالّ والمدلول علاقة جدليّة ووجود أحدهما يستدعي بالضّرورة وجود الآخر، والعلاقة اللّسانيّة هي هما معا أو لا تكون.

وفي محاضرات سوسّير موازنة أخرى بين اللّغة وهي تقوم بعملها وبين لعبة الشّطرنج وتتضمّن هذه الموازنة أنّ معنى كلمة من الكلمات رهين علاقتها بسائر الكلمات، فهو يتحدّد بتقابل هذه الكلمة مع بقيّة الكلمات الأخرى مثله في ذلك مثل كلّ قطعة من قطع اللّعبة، فإنّ قيمتها رهينة موقعها من الرّقعة وعلاقتها ببقيّة القطع و «إن نحن عرضنا بعض القطع الخشبيّة بقطعة أخرى من العاج فإنّ هذا التّعويض لا ينال

1- انظر المعجم المذكور، ص 316.
2- مونان (جورج): مفاتيح الألسنية، ص 120.
3- سوسّير (فرديناند دي): دروس في الألسنية العامّة، تعريب صالح القرمادي ومحمّد الشاوش ومحمّد عجينة، الدار العربية للكتاب، تونس، 1985، ص 110.
4- المصدر السابق، ص 174.
5- المصدر السابق، ص 173.

من نظام اللّعبة، فإن نحن أنقصنا من عدد القطع أو زدنا فيه فإنّ هذا التّغيير ينال من " نحو" هذه اللّعبة إلى حدّ كبير»[1]. فالمعنى في ضوء هذه الموازنة معنى علائقيّ يرتبط بنظام اللّغة ارتباطا وثيقا ولا يوجد سلفا.

ويسمّي سوسّير هذا المعنى العلائقي قيمة لسانيّة Valeur linguistique وهي قيمة تكتسبها العلامة اللّسانيّة من تقابلها مع سائر الكلمات في إطار النّظام «فقولنا إنّ القيم توافق متصوّرات ذهنيّة قول تقديره أنّ تلك المتصوّرات تخالفيّة محضة لا تعرّف إيجابا بمحتواها بل تعرّف تعريفا سلبيّا بما لها منعلاقات مع بقيّة عناصر النّظام الأخرى. فأدقّ خصائص المتصوّر الذّهنيّ كونه يمثّل ما لا تمثّله المتصوّرات الأخرى»[2].

وإنّ هذه السّمة السّلبيّة العلائقيّة التي تتّسم بها القيمة اللّسانيّة هي التي دعت سوسّير إلى أن يفرّق بينها وبين الدّلالة، فالدّلالة عبارة عن علاقة الارتباط الجدليّ بين الدّالّ والمدلول. وهي علاقة تقام داخل العلامة اللّسانيّة ويمثّل سوسّير لما بين القيمة والدّلالة من فرق بالكلمة الفرنسيّة Mouton (خروف)، فإنّ لهذه الكلمة ما لرسيلتها الانجليزيّة Sheep من دلالة، ولكنّ الكلمتين تختلفان من حيث القيمة فأهل اللّغة الانجليزيّة « يسمّون القطعة من اللّحم تطبخ وتقدّم للآكلينMutton لا Sheep. فالاختلاف بين Sheepو Mutton من حيث القيمة راجع إلى أنّ لهم في الإنجليزية بإزاء كلمة Sheep كلمة أخرى، وليس الأمر كذلك بالنّسبة إلى اللّغة الفرنسيّة»[3].

ومن الفروق بين المتصوّرين أنّ قيمة العلامة اللّسانيّة سابقة دلالتها، فالقيمة أوّلا والدّلالة المحلّ الثّاني وذلك راجع لوجود التّقابل بين العلامات أوّلا ولتحديد الدّلالة ثانيا انطلاقا من هذا التّقابل. ويتحدّد المعنى عند سوسّير بفضل العلاقات السّياقيّة والعلاقات التّرابطيّة. فالعلاقات السّياقيّة تربط بعض العلامات ببعض داخل النّظام اللّغويّ وهي علاقات حضوريّة موجودة في سلسلة الكلام، والعلاقات التّرابطيّة غيابيّة مجالها الذّاكرة ووجودها وجود بالقوّة. «فكلمة تعليم مثلا تثير في الذّهن بصورة لا شعوريّة طائفة من الكلمات الأخرى من قبيل علم و أعلم أو من قبيل تسليح أو تربية وتمرّن وتفقّه، ولكلّ هذه الكلمات شيء ما تشترك فيه بوجه أو بآخر» [4] . فكلمة تعليم تشارك علم وأعلم في الجذر وتشارك تسليح وتبذير في الصّيغة الصّرفيّة وتشارك تربية وثقافة في الدّلالة، فالكلمات الثّلاث تنتمي إلى حقل دلاليّ واحد.

ويمعن سوسّير في تبيان طبيعة كلّ من العلاقات السّياقيّة والعلاقات التّرابطيّة فيوازن بين الوحدات اللّسانيّة وبين السّواري. «فللسّارية - من ناحية- علاقة معيّنة بالسّنادة الموجودة فوقها، وهذا الانتظام بين وحدتين معماريّتين متواجدتين في المكان يذكّرنا بالعلاقة السّياقيّة، ومن ناحية أخرى إذا كانت السّارية من أنواع الدّوريّ فإنّها ستوحي لنا بمقارنتها ذهنيّا بسائر أنواع السّواري(الأيّونيّة منها والكورنتيّة وغيرها) وكلّها أنواع غير متواجدة في المكان وإذن فالعلاقة هنا علاقة ترابطيّة»[5].

1- سوسّير (فرديناند دي): دروس في الألسنية العامّة، ص 47.
2- المصدر السابق، ص 179.
3- المصدر نفسه، ص 177.
4- المصدر السابق، ص 187.
5- سوسّير (فرديناند دي): دروس في الألسنية العامّة، ص 187.

إنّ تصوّر المعنى عند سوسّير لذو حظّ من الثّراء والجدّة عظيم. فقد طوّر علم الدّلالة وخلّصه من ربقة المنهج التّاريخيّ كما خلّص منه دراسة اللّغة. فمنهجه في دراسة اللّغة ودراسة الدّلالة منهج آنيّ. وعلم الدّلالة الذي تؤذن به محاضراته علم دلالة آنيّ Sémantique synchronique ولا شكّ أنّ جدّة التّفكير الذي يقوم عليه علم الدّلالة الآنيّ من جهة وهيمنة علم الدّلالة التّاريخيّ من جهة أخرى- هما اللّتان جعلتا ما جاء به سوسّير لا يؤثّر كبير أثر في الدّراسة الدّلاليّة، مدّة تقارب أربعين سنة. بل إنّ ناشري المحاضرات وهما تلميذا سوسّير – لم يقدّرا هذا المبحث الجديد حقّ قدره وأشارا في توطئتهما للمحاضرات إلى خلوّها من بعض فروع اللّسانيّات ومن علم الدّلالة على وجه الخصوص. والحقّ أنّها إنّما خلت من علم الدّلالة التّاريخيّ وقد كان إلى زمن نشر المحاضرات مرادفا لعلم الدّلالة وما كان الدّارسون يتصوّرون أن يكون علم الدّلالة آنيّا أيضا، ولذلك فإنّ النّاشرين قد قادهما خلوّ المحاضرات من علم الدّلالة التّاريخيّ إلى القول بخلوّها من علم الدّلالة، وذلك غير صحيح «فلعلم الدّلالة مكان عليّ في هذه المحاضرات ولكنّ الأمر يتعلّق بتفكير حول علم الدّلالة الآنيّ وهو وقتئذ جديد كلّ الجدّة» [1].

وقد تعرّضت نظريّة المعنى عند سوسّير إلى النّقد، فالمدرسة السّلوكيّة تعيب عليها تعريف الدّالّ والمدلول تعريفا نفسيّا، فسوسّير يقرّ «أنّ العنصرين اللّذين ينطوي عليهما الدّليل اللّغويّ إنّما هما عنصران نفسيّان معا ويصل بينهما في دماغ الإنسان صلة الجمع والتّرابط»[2]. وعلى هذا فإنّ الصّورة السّمعيّة – وقد عوّضها سوسّير بمفهوم الدّالّ- «ليست هي الصّوت المادّيّ أو ذلك الأثر الفيزيائيّ المحض، بل هي الأثر النّفسيّ لهذا الصّوت أي الصّورة التي تصوّرها لنا حواسّنا وهي صورة حسّيّة، وإن صادف نعتناها فقلنا إنّها مادّيّة، فبالمعنى الذي ذكرناه فقط وليس بالمقابلة بينها وبين الطّرف الآخر من عمليّة التّرابط أي المتصوّر الذّهنيّ، وهوغالبا ما يكون أبعد في التّجريد» [3] . فالدّليل اللّغويّ كيان تجريديّ ذو سمات نفسيّة ودعامتاه الدّالّ والمدلول، وهما عنصران نفسيّان أيضا. فلا غرو أن لا تذعن له السّلوكيّة بالقبول وأن ترد نظريّة المعنى التي يؤسّس عليها.

ومن المآخذ على نظريّة المعنى عند سوسّير أنّها لا تدخل المرجع في حلقة العلاقات الدّلاليّة إذ لا وجود في هذه النّظريّة إلّا للمتصوّرات الذّهنيّة والصّور السّمعيّة، فأنموذج الدّليل اللّغويّ – أو العلامة اللّسانيّة يمكن تمثيله بالتّرسيمة التّالية:

الدّالّ

الدّليل = ــــ

المدلول

1- Mounin (George) : Structure et sens, in Mounin et Kerbrat- Orecchioni : Sémantique, Encycl Universalis, T20, p694

2- سوسّير (فرديناند دي): دروس في الألسنية العامّة، ص 110.

3- سوسّير (فرديناند دي): دروس في الألسنية العامّة، ص 110.

وفي هذا السّياق يقول رامان سلدن«لا مكان للأشياء في هذا النّموذج، ولا تكتسب عناصر اللّغة نتيجة بعض الارتباط بين الكلمات والأشياء، بل كأجزاء في نسق العلامات فقط» [1] . ويذهب جورج مونان ألى أنّ نقطة الضّعف في بناء التّصوّر الدّلاليّ عند سوسّير تكمن في غموض العلاقة بين المدلول والمرجع أي بين المتصوّر والشّيء حيث يقول «إنّ موقف سوسّير من المدلول غير واضح، فهو حينا لديه مرادف تصوّر أي مفهوم نفسيّ منطقيّ، وحينا (رغم أنّه ينبّه إلى أنّ الكلمة لا تتكوّن من رابط بين صوت وشيء) هو مرادف شيء أي مفهوم كائن يمكن أن يكون مادّيّا أو نفسيّا أو منطقيّا: "طاولة"، "خوف"، "حرّيّة" = طاولة، خوف، حرّيّة»[2].

ويمكن أن نصوغ هذا الانتقاد بالشّكل التّالي:

المدلول = الصّورة الذّهنيّة للشّيء ←المدلول ≠ الشّيء

المدلول = الشّيء نفسه ←المدلول = المرجع

وسواء على المدلول أكان الشّيء نفسه أم كان صورة الشّيء الذّهنيّة أنّ التّصوّر السّويسريّ للدّليل اللّسانيّ هو - في نظر مؤيّديه ومعارضيه على السّواء - تصوّر ثنائيّ. ولقد سعى المناطقة وعلماء اللّسان إلى أن يستبدلوا بالتّصوّر الثّنائيّ للدّليل تصوّرا ثلاثيّا دعائمه الدّالّ والمدلول والمرجع وغايته توضيح الغموض المتعلّق بالرّابط بين الشّيء وصورته الذّهنيّة، أي بين الواقع غير اللّغويّ والمدلول، وكذلك وضع تعريف لسانيّ للمدلول، والسّبيل إلى ذلك تعديل التّصوّر السّويسريّ للدّليل وجعله ثلاثيّا لا ثنائيّا. وهكذا يقيم أوجدن ورتشاردز التّصوّر الخاصّ ببنيه المعنى على علاقه ثلاثيّة بين الرّمز أو الدّليل والمتصوّر أو المدلول و المرجع وهو الشّيء، أو الواقع غير اللّغويّ، ويوضّحان هذا التّصوّر الثّلاثيّ بترسيمة المثلّث السّيميائيّ :

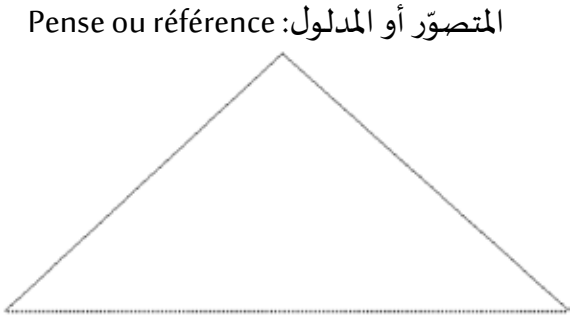

1- سلدن (رامان): النظرية الأدبية المعاصرة، تعريب سعيد الغامدي، ط1، المؤسّسة العربية للدّراسات والنشر، بيروت، 1996 ص85.

2- مونان (جورج): مفاتيح الألسنية، ص 120.

وتدلّ الخطوط المتقطّعة في قاعدة المثلّث على انتقاء العلاقة المباشرة بين الرّمز وبين المرجع.

وقد بسط أولمان ترسيمة أوجدن ورتشاردز والمصطلحيّة التي تقوم عليها هذه التّرسيمة واقترح أن يطلق لفظ "الاسم" على دالّ العلامة اللّسانيّة ولفظ "المدلول" على معناها ولفظ "الشّيء" على مرجعها. وتتّخذ ترسيمة المثلّث الشّكل التّالي :

المعنى Sens :

الشّيء: Chose

الاسم : Nom

ولا شكّ أنّ هذا التّصوّر الثّلاثيّ للعلامة اللّسانيّة قد ساهم في تدقيق العلاقة بين الكلمات والأشياء أو بين الأسماء والمسمّيات وفي توضيح ما عسى أن يكتنف الرّوابط بين المفهوم والمرجع في غموض، ولكنّ هذا التّصوّر الثّلاثيّ لا يمكن له بحال أن يكون تغييرا كيفيّا للتّصوّر الثّنائيّ الذي ينسب إلى سوسّير، ذلك أنّه ليس ببديل منه.فقد صيغ في إطار النّظريّة السّويسريّة نفسها، فهو تدقيق لبعض جوانبها وتوضيح لما غمض منها، ولا يمكن أن يدّعى بأنّ بين التّصوّر الثّنائيّ للعلامة اللّسانيّة وبين تصوّره الثّلاثيّ عند المناطقة واللّسانيّين قطيعة ابستمولوجيّة تحملهم على أن يعتقدوا - كما يقول جورج مونان – «بأنّهم غيّروا تغييرا عميقا التّصوّر الثّنائيّ الذي ينسبونه إلى سوسّير»[1].

بل إنّ نسبة التّصوّر الثّنائيّ للدّليل لسوسّير ووصم موقفه من المدلول بالغموض لممّا يحتاج إلى نظر، فإذا كان جورج مونان قد سلّم في مفاتيح الألسنيّة بغموض الموقف السّوسّيريّ فيما يخصّ الرّابط بين المدلول وبين المرجع فقد رجع عن ذلك في نصوص لاحقة ونفى عن موقف سوسّير أن يكون غامضا وعن تصوّره أن يكون في حقيقة أمره ثنائيّا. فهو يقول في " دائرة المعارف العالميّة " ما نصّه:"أوضح سوسّير بجلاء (وإن لم ينتبه إلى ذلك بعض شرّاحه) أنّ المدلول لا يحيل إحالة مباشرة على الشّيء الملموس (وأنّه ليقول ذلك بصريح العبارة) أي على ما يتحدّث عنه بدقّة حدث متفرّد من أحداث الكلام نحو : هل تفضّلت فمددتّني بهذا الكرسي- Voulez-vous me faire passer cette chaise - وفي هذه الحالة يشير سوسّير إلى الشّيء المتفرّد أو مرجع العلامة في الملفوظ المقصود بواسطة الرّسم بالحروف الغليظة :**كرسيّ** -chaise-. فتعريب العلامة عند سوسّير ليس إذن ثنائيّا ولكنّه ثلاثيّ. فهو مثله في ذلك مثل من جاء بعده كأوجدن

1- مونان (جورج): مفاتيح الألسنية، ص 120.

وردتشاردز وأولمان... يميّز الدّالّ من المدلول والمدلول من المرجع[1] . وإذا كان المناطقة واللّسانيّون الذين اتّبعوا سوسّير قد حرصوا على أن يخلّصوا تصوّرهم للعلامة اللّسانيّة ممّا اكتنفه من غموض وأن يعرّفوا المدلول تعريفا لسانيّا عمليّا فإنّهم لم يحقّقوا في واقع الأمر ما تاقوا إليه من غايات، فتصوّرهم الثّلاثيّ نفسه ليس بمعزل عن الغموض. فقد اختلفوا في المعنى: أهو العلاقة بين الرّمز والفكرة أي بين الدّالّ و المدلول أم هو الفكرة نفسها أي الصّورة الذّهنيّة.وقد ذهب أولمان إلى أنّ معنى الكلمة هو مدلولها، ولذلك اقترح أن نطلق لفظ "المعنى" على "المدلول". أمّا أوجدن فيجيب عن السّؤال بقوله، وهو يشير الى الرمز بـ "أ" وإلى الفكرة بـ "ب" :

«**إمّا أن نأخذ المعنى باعتباره العلاقة بين "أ" و "ب" أو باعتباره "ب" نفسها**»[2].

وما تجدر ملاحظته أنّ اوجدن وأولمان يعرّفان المعنى دون أن يستندا في هذا التّعريف إلى المرجع والحال أنّهما من أصحاب التّصوّر الثّلاثيّ للعلامة اللّسانيّة. والمدلول عند أوجدن وريتشاردز يذكر مع الفكرة والتّصوّر ويذكر الرّمز مع الكلمة والاسم ويذكر الشّيء الخارجيّ مع المشار إليه، ولهذا فقد بسط أولمان مثلّثهما السّيمائيّ، والتّبسيط دليل على أنّ هذا المثلّث لا يخلو من هنات. ومن الانتقادات التي وجّهت إلى التّصوّر الثّلاثيّ للعلامة أنّ ركنين من أركانه - وهما المتصوّر الذّهنيّ أو المدلول والمرجع أو الشّيء ذاته يخرجان بالدّراسة الدّلاليّة عن مجال اللّغة الصّرف. وإذا كان الدّالّ عنصرا لغويّا فإنّ المدلول والمرجع عنصران غير لغويّين: فالمدلول مفهوم نفسيّ منطقيّ، وهو الصّورة الذّهنيّة التي يحيل عليها الدّالّ من جهة أنّه قائم في مخزوننا الذّهنيّ وأنّه شكل من أشكال انعكاس العالم في العقل ووظيفته أن يربط بين الكلمات والأشياء.

ثم إنّ المتصوّر - من حيث هو صورة ذهنيّة موجودة في عقول المتكلّمين والسّامعين - يصعب حصوله إذ هو ممّا لا يمكن ملاحظته ملاحظة مباشرة ولا التأكّد منه نظرا إلى ما يحكمه من عوامل نفسيّة أو شخصيّة ذاتيّة. وإنّ كثيرا من كلمات اللّغة لا يمكن أن تكون لها صورة ذهنيّة، فهي غير قابلة للتّصوّر، مثل الكلمات التّجريديّة كالحرّيّة والفضيلة والخير والشّرّ والأدواتكحروف الجرّ. وينتج عن صعوبة تحديد المتصوّرات وعن الطّابع الذّهنيّ الذي تتّسم به أنّها كثيرا ما تختلف من شخص إلى شخص، «فليس هناك ضمان - كما يقول ديفيد كريستال - بأنّ المتصوّر الذي يمكن أن يأتي إلى ذهني عندما أستخدم كلمة طاولة سيكون هو نفسه المتصوّر الذي يمكن أن يأتي إلى ذهنك»[3]. وربّما تجاوزت المتصوّرات في أذهان النّاس درجة الاختلاف لتبلغ درجه التّضادّ، فمتصوّر "الله" في العقيدة الإسلاميّة مرتبط بالوحدانيّة، فالله واحد أحد،وفي العقيدة المسيحيّة مرتبط بالتّثليث فالله ثالث ثلاثة.

1- مونان(جورج) و كربرات أوركيوني (كاترين): علم الدّلالة، تعريب شعبان بن بوبكر ، دراسات لسانية، مجلد 3، تونس، 1997، ص43.

2- Ogden(charles Kay) et Richardes (Iver Armstrong) : The meaning of meaning, London, Paul Kegan,1923, p185.

3- كريستال (دافيد): علم الدلالة، ص 263.

أمّا المرجع - وهو ما تحيل عليه الأشياء في الواقع غير اللّساني - فإنّ الاعتداد به في التّحليل الدّلاليّ إقحام لعناصر خارجيّة في ميدان الدّراسة اللّغويّة المحضة ومعالجة لقضايا هذه الدّراسة في إطار غير إطارها وفي ضوء متطلّبات علميّة غير متطلّباتها. وفي هذا السّياق يقول ليتش: «إنّ البحث عن تفسير للظّاهرة اللّغويّة خارج إطار اللّغة يشبه البحث عن منفذ للخروج من حجرة ليس لها نوافذ ولا أبواب، والمطلوب منّا أن نقنع بتقصّي ما هو موجود داخل الحجرة أي أن ندرس العلاقات داخل اللّغة»[1]. وإنّ أصحاب التّصوّر الثّلاثيّ لم ينجحوا في وضع قواعد لسانيّة لنظريّة المعنى ولتعريف المدلول لأنّهم لم يحدّدوا هذا المدلول وذلك المعنى انطلاقا من اللّغة وحدها ومن خواصّها النّوعيّة بل لجؤوا إلى عناصر العالم الخارجيّ واستندوا إلى المرجع ركنا من أركان البنية الدّلاليّة.

ولهذا كلّه ولغيره فقد اقترح بعض علماء اللّغة الألمان - ونحن نعني كلاوز هيجر(klauss Heger) وبالدنجر (kurt Baldinger) على وجه الخصوص – أن يعوّضوا المثلّث السّيمائيّ بهذه التّرسيمة التي أطلقوا عليها اسم متوازي الضّلعين السّيميائي- Trapèze sémiotique–

وبذلك يكون تصوّرهم للعلامة اللّسانيّة تصوّرا رباعيّا عمدته المبنى والمعنى – أو الدّالّ والمدلول- والمتصوّرConcept - والمرجع. فالمبنى والمعنى باباهما اللّغة، ولكنّ المرجع والمتصوّر عنصران غير لغويّين. فالمرجع يدخل في إطار العالم الخارجيّ والمتصوّر كيان نفسيّ لا يطابق المعنى أو المدلول، فهو عباره عن تمثيلات غير لسانيّة أهّل لها أن تقوم بوظيفة المرجع بالنّسبة إلى كيانات خياليّة محضة. «فنحن - في هذه الحال- نتصرّف وكأنّ ما نتحدّث عنه موجود في العالم الخارجيّ»[2].

ولا يبرأ هذا التّصوّر الرّباعيّ من الهنات، فمصطلح المتصوّر مصطلح ملتبس «قابل للنّقاش»[3]. ولذلك استبدل به بعض علماء الدّلالة مصطلحا آخر هومصطلح التّمثيلReprésentation . وقد أريد لهذا التّمثيل أن يكون مرجع ما لا مرجع له من الكيانات الخياليّة، وليس لتصوّر العلامة اللّسانيّة في هذه الحال إلّا أن يكون ثلاثيّا لا رباعيّا، إذ تكون دعائمه المعنى والمبنى والمتصوّر الذي قام مقام المرجع التخيّليّ

1 -Leech (Geoffrey) ; Semantics, Penguin, 1974, p71.

2 -Baylan(Christian) et Mignot (Xavier) : Sémantique du langage Nathn, Paris, 1978,, p46.

3 - Ibid, Op cit, p 45.

Référence fictif. وهكذا يكون متوازي الضّلعين السّيميائيّ «مجرّد رسم تخطيطيّ مثله في ذلك مثل سائرالرّسوم التّخطيطيّة» [1] .فهو محاولة لحلّ القضايا الدّلاليّة، تظلّ- أيّاما تكون أهمّيتها- محاولة ضمن محاولات أخرى عديدة يساهم كلّ منها في القيام بحقّ جانب من جوانب الظّاهرة الدّلاليّة. فهذه الظاهرة هي من الغنى واتساع المسائل وتشعّب القضايا بحيث لا تطمع في دراستها دراسة وافية شافيّة وإن توسّلنا إلى ذلك بمناهج دراسة المعنى متضافرة متساندة، فكيف نطمع في ذلك ووسيلتنا منهج واحد؟

4- نظريّة المعنى السّلوكيّة:

إنّ السلوكيّة اتّجاه في علم النّفس المعاصر نشأ سنه 1913 على يد العالم الأمريكيّ ج- ب واطسن (1878 – 1958). وقد أفاد من المعلومات التّجريبيّة التي وفّرها البحث في سلوك الحيوانات. ويفسّر هذا الاتّجاه سلوك الكائن العضويّ حيوانا كان أو إنسانا بكونه استجابة Répense أو ردّ فعل لمنبّه Stimulus أو مثيرا خارجيا ينشأ عن تأثير البيئة المحيطة بالكائن العضويّ. فالعلاقة بين المنبّه والاستجابة هي وحدة السّلوك الأساسيّة.

وقد ظهرت في الثّلاثينات من القرن العشرين ألوان جديدة من السّلوكيّة تأثّرت بتعاليم بافلوف واستعملت مصطلحاته وتصنيفاته لأشكال السلوك ومنهجه الموضوعيّ للانعكاسات الشّرطيّة. وتعرض السّلوكيّة عن الفكر القبليّ وتعدل عن المسائل الماورائيّة وتصدّ عن استخدام المصطلحات الذّهنيّة والتّصوّريّة في دراسة السّلوك. فالمعرفة العلميّة يجب ان تبنى على المنهج التّجريبيّ لا على صور التّفكير العقليّ والاستبطان والشّعور، وما لا يمكن ملاحظته.

وتستعمل السّلوكيّة - وهي تقيم العلاقة بين المنبّه وردّة فعل- المعادلة التّاليّة:

م⟵ر (=منبّه⟵ردّ فعل)

S⟶R (= Stimulus⟶Réponse)

والمثير أو المنبّه سبب لأنّه هو الذي يحدث ردّ الفعل في الكائن العضويّ. أمّا الاستجابة فهي أثر هذا المنبّه ونتيجته. ويعدّ ليونارد بلومفيلد أوّل من طبّق هذه النّظريّة السّلوكيّة على الدّراسة اللّسانيّة. فقد تأثّر بالاتّجاه السّلوكيّ وهاجم- من ثم- تصوّر اللّغة الذّهنيّ ليولّي وجهه صوب تصوّر آليّ Conception mécaniste . يقول بلومفيلد «ليس لعالم اللّغه أن يهتمّ إلّا بالإشارة اللّسانيّة... وليس من اختصاصه أن يعالج قضايا الفيزيولوجيا وعلم الأعصاب»[2]. ولذلك رفض ما تذهب اليه النّظريّة الذّهنيّة من أنّ إنتاج الإشارات اللّسانيّه تحكمه عوامل غير مادّيّة قد تكون فكرة Un esprit أو إرادة Une volenté Une أو وعيا[3] conscience وإنّما رفض بلومفيلد هذه المصطلحات الذّهنيّة لأنّها لا تقنع بأن لا تفيد الدّراسة اللّسانيّة حتّى

1- Ibid, Lok cit, p 45.

2- Bloomfield (Leonard) : Langage, Payot, Paris,1970, p 53.

3 - Ibid, pp 35-36.

تتجاوز ذلك إلى أن تضرّها، ذلك «أنّ مثل هذه التّعابير الغائيّة أو الرّوحانيّة التي تشير إلى الفكر والوعي والمفاهيم ...لا تقدّم أيّ خير من جهة، كما أنّها تؤثّر من جهة أخرى تأثيرا سلبيّا في اللّسانيّات»[1].

ويمثّل بلومفيلد المعادلة السّلوكيّة بالمثال التّالي:«هب أنّ جاك وجيل يتنزّهان في ممرّ مسيّج وأنّ جيل جائعة فترى تفّاحه على شجرة فتحدث أصواتا بحنجرتها ولسانها ، فيتخطّى جاك السّياج ويتسلّق الشّجرة ويقطف التفّاحة ثمّ يحضرها لجيل ويضعها بين يديها فتأكلها»[2]. وإذا أمكن لهذه الأحداث المتتالية أن تدرس من غير جانب فإنّه يمكن للّساني- وهو يدرسها- أن يميّز بين الحدث الكلاميّ وبين الأحداث العمليّة السابقة على عمليّة الكلام أو التّالية لها. وعلى هذا فإنّ قصّة المثل الذي ضربه بلومفيلد يتكوّن زمانيّا من ثلاث مراحل:

أ- الأحداث العمليّة التي سبقت الحدث الكلاميّ.

ب- الحدث الكلاميّ.

ت- الأحداث العمليّة التي تلت الحدث الكلاميّ.

فالأحداث التي تسبق كلام جيل تتعلّق بجوعها وما يتبعه من عمليّات فيزيولوجيّة تصاحب شعور الجائع، وبرؤيتها للتّفّاحة. ويسمّي بلومفيلد هذه الأحداث "مثير المتكلّم". والأحداث التي تتلو كلام جيل تتعلّق بالسّامع وهو جاك. وتتمثّل في تسلّقه الشّجرة وقطفه التّفّاحة وإعطائها لجيل. ويسمّي بلومفيلد هذه الأحداث "استجابة السّامع".

أمّا الأحداث الكلاميّة فليست استجابة مباشره للمثير الخارجيّ، فقد كان يمكن للفتاة جيل أن تتسلّق هي الشّجرة وأن تقطف التّفّاحة وتأكلها، ولكنّها استجابة بديل تتّخذ شكل سلسلة من الأصوات يصدرها جهاز التّصويت. فالحدث الكلاميّ اذن ردّ فعل لسانيّ يمثّل بدوره منبّها أو مثيرا ثانيا يؤدّي إلى ردّ فعل عمليّ، فإذا رمزنا الى ردّ الفعل اللّسانيّ بـ: ر-R و إلى ردّ الفعل العمليّ بـ: ر-r ورمزنا إلى المثير الخارجيّ بـ: م-S، وإلى المثير اللّسانيّ بـ: م-s اتّخذت المعادلة الشّكل التّالي:

م⟵ر⟵م⟵رR⟶s⟶r⟶S

والمعنى -في ضوء النّظريّة السّلوكيّة- يرتبط بالمواقف المتنوّعة التي تستخدم فيها اللّغة. فمعنى الصّيغة اللّغويّة هو الموقف الذي ينطق فيه المتكلم تلك الصيغة والاستجابة التي تستدعيها من السامع، أو هو -على وجه الدقّة- مجموع المواقف التي تمثّل فيها الصيغة مثيرا، والاستجابات التي تترتّب عن هذا المثير. ولمّا كان هذا المجموع من المواقف والاستجابات أمرا يطلب فلا يدرك فقد كان ذلك من مبرّرات امتناع السّلوكيّة عن دراسة القضايا الدّلاليّة وتركها لعلوم أخرى هي أقدر على القيام بحقّها كالكيمياء والفيزياء وعلم النّبات وعلم الحيوان وغيرها، كما كان دليلا على أنّ تحديد المعنى يشكّل نقطه الضّعف في دراسة اللّسان.

1- مونان (جورج): علم اللّغة في القرن العشرين، ترجمة نجيب غزّاوي، دمشق، 1982، ص 115.
2- المصدر السابق، ص ص 26-27.

وتجابه نظريّة المعنى السّلوكيّة مجموعة من الانتقادات منها -كما يقول دافيد كريستال- «أنّ هناك حالات كثيرة من الصّعب أن تعرف فيها الملامح النسبيّة للمثير والاستجابة»[1]. ومعنى هذا أنّه يمكن أن تحلّل كلمة "الجوع" على أساس من تقلّص المعدة وتقبّضها وتدفّق السّائل المعويّ، وأن نحلّل رؤية التفّاحة اعتمادا على موجات الضّوء التي تنعكس من التّفّاحة على العين، وأن نحلّل كلمة التّفّاحة مستندين إلى ما يقوله عالم النّبات من أنّها ثمرة لها سماتها المميّزة. ولكنّ جمهرة كلمات اللّغة لا يمكن تحديد معانيها على أساس تحليلها العلميّ إذ لا تأوي في شأن معرفتها العلميّة الدّقيقة إلى ركن شديد. فـ"الكراهية" و"الحبّ" و"الحسن" و"القبح" كلمات تستعصي على التّحليل العلميّ والاختبار والملاحظة. بل إنّ المعاني المتعلّقة بما نعرفه معرفه علميّة دقيقة لا تستعمل بهذه الدّقّة في اللّغة. فالألمانيّة تسمّى الخفّاش فأرا وتسمّيه الفرنسيّة الفأر الأصلع. فإذا كانت الأحداث مرئيّة بالمعنى الفيزيائيّ للكلمة وكان من الصّعب مع ذلك أن نحدّد الملامح المشتركة بين المواقف التي يقع فيها الحدث وبين الاستجابات التي تنشأ عنه، فإنّ تحديد غير المرئيّ من الأحداث لأشدّ صعوبة.

ولقد يتقرّر لنا من ذلك خطأ بلومفيلد وهو يربط بين الفهم الدّقيق لمعنى صيغة من الصّيغ الكلاميّة للمسائل التي لنا بها معرفه علميّة، ويضرب على ذلك مثلا لفظ "الملح" الذي يمكن تعريفه تعريفا واضحا وهو أنّه كلوريد الصوديوم. وإنّما جاء الخطأ من جهة أنّه«ليس هناك سبب على الإطلاق كي نجادل في أنّ التّعريفات العلميّه أكثر دقّة - من حيث اللّغة- من التّعريفات غير العلميّة، إنّ دقّة التّعريف العلميّ تخدم غرض العالم: لكنّها لا ترتبط بأيّ حال من الأحوال باللّغة الإنسانيّة. إنّها ليست جزءا من علم اللّغة "يرتّب" اللّغة ". عن طريق جعلها أكثر علميّة" بهذه الطريقة»[2]. إنّ المتكلّم لا يلتمس معنى اللّفظ في اللّغة العلميّة وإنّما يلتمسه في اللّغة المعتادة «والملح في اللّغة المعتادة هو المادّة التي تظهر على مناضدنا، ولن يكون أقلّ ملوحة إذا لم يكن ترتيبه الكيميائيّ هو تركيب تعريف الكيميائيّين. إنّ الملح - بالنّسبة إلى معظمنا ينتمي إلى الفلفل والخردل» [3]ولا يعنينا ما يقوله الكيميائيّون من أنّه "كلوريد الصوديوم" أو علماء الأرض من أنّه جنس من أجناس "الصّخور الملحيّة" Roches salines.

ومن الانتقادات الموجهّة إلى نظريّة المعنى السّلوكيّة ما يخصّ دعواها أنّه بمقدورنا أن نتنبّأ بأنّ مثيرا من المثيرات يستطيع ان يدفع شخصا من الأشخاص إلى الكلام، وأنّه بوسعنا بناء على ذلك أن نتنبّأ بالحدث الكلاميّ وقد أحطنا معرفه دقيقه بالوضع الذي يكون عليه جسم المتكلّم لحظة الكلام. وعمدة هذا الانتقاد أنّه «قد ثبت علميّا صعوبة معالجه حالات تجد النّاس فيها لا يتصرّفون بطريقه استكشافيّة كافتراضنا أنّ جاك لم يقطف التفاحة بسبب خصام مع جيل» [4] وأنّ جيل قد استجابت مباشرة للمثير الخارجيّ فقامت

1- كريستال (دافيد): علم الدلالة، ص 263.

2- بالمر (فرانك روبرت): علم الدّلالة، إطار جديد، تعريب صبري إبراهيم السّيّد، ط1، الإسكندرية، 1992، ص ص 83-84.

3- المصدر نفسه، ص 43.

4- كريستال (دافيد): علم الدلالة، ص 263.

هي بقطف التّفّاحة. بل إنّه ليس من الحتميّ أن يكون المثير الخارجيّ استجابة أصلا لا مباشرة ولا غير مباشرة، فقد ترى جيل التّفّاحة ولكنّ ارتفاع السّياج أو وجود الحارس يؤيّسها من الحصول عليها، فلا تحاول قطفها ولا تطلب من جاك أن يقطفها.

إنّ خطأ بلومفيلد وأصحابه والمعتقدين مذهبه هو أنّهم راموا تطبيق السّلوكيّة - نظريّة نفسيّة- على اللّغة دون أن يراعوا ما لظاهره اللّغة ومناهج دراستها من خصوصيّات، فتطبيقهم تطبيق ميكانيكيّ في جوهره، وأنّ بلومفيلد نفسه ليعتقد أنّ « النّزعة الميكانيكيّة هي الصّيغة الضّروريّة لدراسة علميّة»[1] والحال أنّ من أهمّ الحقائق المتعلّقة باللّغة أن لا وجود - بصفة عامّة- لارتباط بين الكلمات والمواقف المستخدمة فيها إلى الحدّ الذي يتسنّى معه التّنبّؤ بحدوث كلمات معينه باعتباره سلوكا محكوما بالعادة وقابلا لأن يتنبّأ به من خلال المواقف نفسها، فنحن - على سبيل المثال- لا ننطق عادة قولا يتضمّن كلمة "طائر" كلّما وجدنا أنفسنا في موقف نرى فيه طائرا مع أنّه أكثر السّياقات مدعاة لذكر هذه الكلمة، وعلى هذا فإنّ اللّغة استجابة حرّة[2]، وأنّ لها طابعا خلّاقا يعصمها من أن تكون مجرّد سلوك محكوم بالعادة. ولابدّ من الإشارة في هذا المقام إلى أنّ واطسن - رائد المدرسة في علم النّفس- لم يوجب حجج السّلوكيّة بدراسة السّلوك الإنساني وإنّما أوجبها بدراسة السّلوك الحيوانيّ. وإذا أمكن لمبادئ النّظريّة أن تطبّق على الحيوان وسلوكه فإنّ تطبيقها على الإنسان وسلوكه وعلى اللّغة ومجاريها غير مقطوع بقيمته العلميّة، بل لعلّ الاختلاف الكيفيّ بين سلوك الحيوان وسلوك الإنسان يقطع بأنّ تطبيق النّظريّة السّلوكيّة على الإنسان وسلوكه ولغته قيمة علميّة. وأنّه - إلى ذلك- خطر على الدّراسة اللّغويّة، ولهذا كلّه ردّ غير واحد من علماء اللّغة المنهج السّلوكيّ وتطبيقه فيالدّراسات اللّسانيّة، وإنّ ما كتبه شوموسكي ردّا على سكينر وكتابه Verbal Behavior لتقوم به الحجّة على وجاهة هذا الرّدّ وعلى ما في المنهج السّلوكيّ من هنات تقف به دون تطبيقه الموقف على اللّغة بل وعلى غير اللّغة أي على ميدان علم النّفس ذاته.[3]

5- نظريّة المعنى السّياقيّة:

5-1- الجذور الأنتروبّولوجيّة:

لقد ارتبط متصوّر الأنتروبّولوجيا - أو علم الإنسان- بالمجتمعات غير الغربيّة وغير ذات التّقليد الكتابيّ[4]. وهي تطلق بالمفهوم الدّقيق الشّائع على الدّراسة المقارنة مكانا وزمانا للكائن البشريّ من وجهة النّظر الاجتماعيّة والمادّيّة والسّياسيّة.

---

1 - Bloomfield (Leonard) : Langage, p10.

2- ليونز (جون): اللّغه وعلم اللّغة، ج1، تعريب مصطفى التّوني، ط1، القاهرة، 1987، ص ص 7-8.

3- نشر سكينر هذا الكتاب سنة 1975 بنيويورك. وقد دحض شومسكي أطروحات سكينر في عملين أساسيين أوّلهما كتابه structures الصّادر بلاهاي سنة 1957 وثانيهما مراجعته لهذا الكتاب وقد ظهرت بمجلّة Language Syntactic ع 25، ص ص 26-58 بعنوان Revieu of Skinner B.F. Verbal Behavior 1

4 - C.f : Aleong(Stanley): Normes linguistiques, Normes sociales: Une perspective anthropologique, pp 256-257.

وتمكّن الأنتروبّولوجيا تمكينا للمنظور المقارنيّ Perspective comparée، وهي تذهب إلى أنّ المقارنة بين مجتمعات متباعدة مكانا وزمانا من شأنها أن تساعد على فهم الإنسان بمعناه الكلّيّ الشّامل وذلك بأن نحلّل أوجه الإئتلاف والاختلاف بين الشّعوب. وتستند الأنتروبّولوجيا- وهي تواجه ما لتجلّيات الكائن البشريّ من تعدّد- إلى مبدإ السّببيّة الثّقافيّة. ويقتضي هذا المبدأ أنّه علينا - لكي نفهم ظاهرة من الظّواهر نلاحظها في مجتمع غير مجتمعنا - أن نموضوعها في سياقها الخاصّ بها وأن نستعين في تحديد معناها وضبط خواصّها بمقاييس المجتمع التي ظهرت فيه وليس بمقاييس مجتمعنا.

وتدرس الأنتروبّولوجيا اللّسانيّة اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعيّة ونمطا من أنماط السّلوك وشكلا من أشكال العمل. ويميّز عالم الأنتروبّولوجيا الأنجليزيّ برونيسلاف مالينوفسكي - وهو الذي أكسب هذا المنظور صفة الفرضيّة العلميّة- بين أنماط كثيرة من الملفوظات اللّسانيّة طبقا لما تقوم به من وظيفة. فالملفوظات السّائرة تقوم في اللّغة الغربيّة بوظيفة أساسيّة هي التّعبير عن الفكر، وهي في اللّغات "البدائيّة" تستخدم لتحقيق فعل من الأفعال، والمعنى في هذه الحال لا تنبئ به اللّغة شكلا تجريديّا ومجرّد أداة للانعكاس وإنّما تنبئ به استعمالاتها وسياقاتها ومقاماتها. وممّا تجدرملاحظته أنّ مالينوفسكي هو أوّل من استخدم مصطلح " سياق الموقف" Contexte de situation [1]، أو المقام، استعمالا موسّعا في اللّغة الانجليزية.

وقد تلقّى اللّسانيّ الإنجليزي جون روبرت فيرث John Rupert Firth آراء مالينوفسكي بالقبول، فهو أيضا يولي بعد اللّغة العمليّ وصيغتها الحركيّة أهمّيّه بالغة. ويرى ذلك متجسّما في كلّ ملفوظات اللّغة، وأنّ الإقرار بهذه الصّيغة الحركيّة وبذلك البعد العمليّ هو الذي أهّل سياق الموقف أو المقام إلى أن يكون قطب الرّحى في نظريّة المعنى السّياقيّة.

ويعود الفضل في تأسيس هذه النّظريّة إلى فيرث، فقد طوّرها في بادئ الأمر بالاشتراك معمالينوفسكي مدة سنوات خمس [2] ثم تضافرت عليها جهود تلاميذه[3] فأتمّوا صياغتها وأوجبوا حججها. وهكذا فإنّه إذا كان مالينوفسكي هو الذي طبع فكرة السّياق بطابع الفرضيّة العلميّة، فإنّ فيرث وتلاميذه هم الذين حقّقوا هذه الفرضيّة وأخرجوها من حدّ المظنون إلى حدّ اليقينيّ وبلغوا بها درجة النّظريّة العلميّة أو كادوا. فما موقع السّياق من هذه النظريّة؟ وما أثره في تحديد المعنى وضبطه؟

1- Firth (John Rupert) : - Papers in linguistics, 1934-1951, London Oxford university, Press, 1957.

2- هذا التّعاون بين العالمين مبدؤه سنة 1930 ومنتهاه سنة 1935. انظر:

Firth (J.R) : Ethnographie analysis and linguage with reference to Malinowski s wiews, in Id(Edit) : Man and culture, London, 1975, pp93-118

3- وأبرزهم أليس Ellis وهاليداي Halliday وماكنتوش Mcintosh وميتشيل Mitchell و سنكلير Sinclair.
انظر:

Lyons (John) : Sémantique linguistique, p232

2-5- منزلة السّياق في نظريّة المعنى السّياقيّة:

لم توسم هذه النّظريّة بالـ "سياقيّة" إلّا وهي تؤسّس على السّياق وتمكّن له تمكيننا، وتجعل المعنى مرتبطا به ارتباطا لازما، فليس لك أن تضع الكفّ على المعنى إن رمت أن ترسله خارج سياقاته المختلفة، أي أنّه لا يتكشّف إلّا من خلال ما يسمّيه فيرث " تسييق الأحداث المتسلسل"[1]، وهو يعني بذلك أنّ المعنى يدرس من خلال سياق مدرج في سياق آخر بحيث يكون كلّ منهما فرعا على أصل واحد، هو السّياق الذي يدرجان فيه معا. وهكذا تدرج السّياقات المختلفة حتّى يبلغ كتا[2]ب التّدرّج أجله، ويشمل السّياقات كلّها ما يسمّيه فيرث السّياق الأكبر، وهو "سياق الثّقافة".

ويمكن أن نقسّم هذه السّياقات إلى نوعين: سياق اللّغة وسياق الموقف.

أ- سياق اللّغة:

سياق اللّغة - أو السّياق اللّغويّ- عبارة عن مجموعة الوحدات اللّسانيّة التي تسبق وحدة معيّنة أو تتلوها[3]، فهو لا ينظر إلى الوحدات منعزلة، فالوحدة اللّسانيّة يتحدّد معناها مع الوحدات الأخرى في سلسله الكلام. معنى ذلك أنّ توزيع الوحدة السّياقيّ يكون دليلا شكليّا من دلائل المعنى وقرينا من قرائنه، فالسّياق اللّغويّ «هو الذي يفرض قيمة واحدة على الكلمة بالرّغم من المعاني المتنوّعة التي في وسعها أن تدلّ عليها، وهو الذي يخلّص الكلمة من الدّلالات الماضية التي تدعها الذّاكرة تتراكم عليها، ثم إنّه هو الذي يخلق لها قيمه حضوريّة» [4] . إنّ الكلمات تتصرّف في اللّغة على أوجه شتّى، ولكنّ السّياق الذي ترد فيه يظهر أحد الوجوه ويمكّن له دون غيره. ولنا أن نقرّر في هذا المقام حقيقة لسانيّة هامّة وهي أنّ قيمة العلامة اللّسانيّة لا تكمن في معنى العلامة بقدر ما تكمن في أثر المعنى الذي يولّده استعمال العلامة في سياق لغويّ محدّد. ونحن نعني بذلك أنّ للعلامة-من حيث هي كيان تجريديّ- معنى يطلب في معجمات اللّغة، ولها - من حيث هي إنجاز- معنى فعليّ، وهو الذي يحقّقه الاستعمال في سياق لغويّ بعينه. ولنضرب على ذلك مثلا كلمة "عين" في اللّغة العربيّة. فهذه الكلمة تقع على معان مختلفة كثيرة، ولكنّ السّياق اللّغويّ الذي ترد فيه يجعلها لا تقع في الغالب إلّا على معنى واحد، فإذا قلت " فقئتعين فلان" كان للعين معنى واحد، فالعين عضو الإبصار. وإذا تحدّثت عن عيون الشعر أو عيون الأخبار دلّت العين على النّفيس من كلّ شيء. وإذا أخبرت أنّه قد زارك محمّد عينه دلّت العين على ذات الشّيء ونفسه.وإذا قرأت انّ قائد الجيش "بثّ العيون" فهمت أنّ المقصود بالعيون الجواسيس. والعين في قوله تعالى " فيها عين جارية "[5] تطلق على موضوع الماء. وهي في قوله تعالى" وألقيت عليك محبّة منّي ولتصنع على عيني" [6] تدلّ على الإكرام والحفظ والعناية.

1- Firth (J.R) : Papers, p32.

2- Lok cit, p32.

3- Dubois (Jean) et Coll : Dictionnaire de linguistique, Paris, Larousse, 1973, p120.

4- فندريس(جوزيف): اللّغة، تعريب عبد الحميد الدويخلي ومحمّد القصّاص، ط1، القاهرة، 1951 ، ص 231.

5- سورة الغاشية، آية 12.

6- سورة طه، آية 39.

ولنضرب على ذلك مثلا ثانيا كلمتي "الحياة" و"الموت"، فأنت تقرأ قوله تعالى "الذي خلق الموت والحياة ليبلوّكم أيّكم أحسن عملا"[1] وقوله تعالى "إن هي إلّا حياتنا الدّنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين" [2] فنفهم أنّ المراد بـ"الحياة" و"الموت" مقاربة النّفوس للأجسام ومفارقتها إيّاها. وأنت تجد اللفظتين في قوله تعالى "أو من كان ميّتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في النّاس كمن مثله في الظّلمات ليس بخارج منها كذلك زيّن للكافرين ما كانوا يعملون" [3] فلا يذهب عليك أنّه ما بمعنى الهدى والضلال والعلم والجهل.

وتتلو قوله تعالى" رزقا للعباد وأحيينا به بلدا ميّتا " [4] فيكشف لك سياقهما الّلغويّ عن المراد بـ"الحياة" و"الموت" وهو الخصب والجدب. ويجيبك قول جميل:

يموت الهوى منّي إذا ما لقيتها   ويحيى إذا فارقتها فيعود

فيكون شاهدا على صحّة ما تذهب إليه من أنّ الحياة والموت معناهما في هذا الموضع الحركة والسّكون. والموت والحياة في صدر هذا البيت:

نموت ونحيا كلّ يوم وليلة   ولابدّ يوما أن نموت ولا نحيا

معناهما: النّوم واليقظة، وهما في قول المتنبّي:

تركتني اليوم في غفلة   أموت مرارا وأحيا مرارا

بمعنى الرّجاء والخوف.

وإنّ وضع الوحدات اللّسانيّة في سياقات مختلفة هو الذي يمكّننا من البتّ في قضيّة التّرادف بين وحدتين أهو ترادف تامّ أم هو ترادف ناقص، فالتّرادف التّامّ إذا أمكن للوحدتين أن تحلّ إحداهما محلّ الأخرى في كلّ السّياقات اللّغويّة وأن يظلّ معناهما واحدا لا يتغيّر، والتّرادف النّاقص أن تكون الوحدتان غير قابلتين لأن تحلّ إحداهما محلّ الأخرى في كلّ السّياقات، فهما في هذه الحال ليستا بمعنى، وليستا بمترادفتين في السّياقات التي لا تسمح بتبادل المواقع بين الوحدتين ولا يستغلّ السّياق اللّغويّ لتحديد المعاني المختلفة وتخصيصها فقط، وإنّما يلجأ إليه أيضا لدراسة المعاني المضادّة. إنّ الأضداد توجد على مستوى اللّغة ولكن لا توجد على مستوى الكلام. وبعبارة أخرى فإنّه إذا كان من سنن العرب أن يسمّوا المتضادّين باسم واحد، فإنّ السّياق اللّغويّ الذي يستعملون فيه الأضداد هو الذي يكون أمارة على المعنى المقصود: ينبئ عنه ويدلّ عليه ويوضّح تأويله. وفي هذا السّياق يقول أبو بكر الأنباري موضّحا هذه الحقيقه «إنّ كلام العرب يصحّح بعضه بعضا، ويرتبط أوّله بآخره ولا يعرف معنى الخطاب إلّا باستيفائه واستكمال

1- سورة الملك، آية 2.

2- سورة الأنعام، آية 29.

3- سورة الأنعام، آية 122.

4- سورة ق، آية 11.

جميع حروفه، فجاز وقوع اللّفظة الواحدة على المعنيين المتضادّين لأنّه يتقدمها ويأتي بعدها ما يدلّ على خصوصيّة أحد المعنيين دون الآخر، فلا يراد في حال التكلّم إلّا معنى واحد»[1].

فإذا كانت العلامة اللّغويّة في اللّغة نوعا من المشترك، فإنّ السّياق اللّغويّ يخرجها من الاشتراك. فهو سبيل إلى تبيين المجمل وتخصيص العامّ وتقييد المطلق. بل إنّ السّياق اللّغويّ ليتجاوز مجرّد ضبط المعنى وتحديده إلى وضعه وإنتاجه، أي أنّه ليحلّ أحيانا رابطة اللّزوم بين الدّالّ والمدلول القديمين ويهب من لدنه للدّالّ القديم مدلولا جديدا لا يرتبط به في عرف اللّغة وإنّما يكتسبه داخل السّياق اللّغويّ. ففي قول رابعة العدويّة:

أحبك حبّين حبّ الهوى   وحبّ لأنّك أهل لذاك

فأمّا الذي هو حبّ الهوى   فشغلي بذكرك عمّن سواك

وأمّا الذي أنت أهل له   فكشفك للحجب حتّى أراك

تجد عبارتين هما "حبّ الهوى" و"حبّ الأهليّة"، فتبحث عن معناهما في معجمات اللّغة فلا تظفر بطائل، فهو وليد السّياق اللّغويّ للنصّ الذي ورد فيه. وأنت تستقي تعريف العبارتين من معجم النصّ الشّعريّ وسياقه وليس من معجم اللّغة ونسقها، فـ"حبّ الهوى" أن يشغل المرء بذكر الله عمّن سواه و"حبّ الأهليّة" أن يكشف الله لعبده الحجب حتّى يراه. فالمعنيان نتاج من نتاج النّصّ ولا وجود لهما خارج سياقه.

وفي قول الشّاعر:

لا تحسبنّ الموت موت ليلى   وإنّما الموت سؤال الرّجال

كلاهما موت ولكن ذا   أشدّ من ذاك لذلّ السؤال

يكون للسّياق النّصّيّ سلطة التّشريع وإنتاج المدلولات، فهو يهدّ ركني العلامة اللّسانيّة "الموت". فدالّ "الموت" ليس مدلوله "البلى" أي إنّ الموت في معجم النّصّ الشّعريّ ليس هو بلى الأجسام وقد فارقتها الأرواح، ولكنّه "سؤال الرّجال". ويعزّز السّياق النّصّيّ هذه السّلطة بسلطة أخرى هي سلطه التّعليل: إنّما استحقّ دالّ "الموت" أن يكون مدلوله "سؤال الرّجال" لا "موت البلى" لأنّ في الأوّل من شدّة ذلّ السؤال ما ليس في الثّاني. ولكنّ السّياق اللّغويّ لا يكفي وحده - أيّا ما تكن أهمّيته لتحديد المعنى الشّامل التّامّ للملفوظ ولابدّ أن يعزّزه نوع آخر من السّياقات هو سياق الموقف.

ب- سياق الموقف:

سياق الموقف - أو المقام- عبارة عمّا تشترك فيه المجموعة اللّسانيّة من معطيات تتعلّق بمواقف أفرادها الثقافيّة والنّفسيّة وبتجاربهم ومعارفهم وبشخصيه كلّ منهم. فهو يشمل كلّ الجوانب الخاصّة بعمليّة

1- السّيوطي (جلال الدّين): المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، تحقيق محمّد جاد المولى ومحمّد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمّد البجاوي، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، 1987، ص ص 397-398.

الاتّصال، فيندرج ضمن ذلك الإنسان والمجتمع والتّاريخ والزّمان والمكان والمقاصد والغايات، وتدخل فيه الثّقافة وعالم الخطاب والاعتقادات.

ويشترك سياق اللّغة وسياق الموقف في أمور ويختلفان في أمور، فكلّ منهما يحقّق المعنى. ونعني بالتّحقيق انتقال المعنى الخاصّ بالوحدات المفردة إلى المعنى الفعليّ الدقيق الذي يكون لهذه الوحدات في ملفوظ بعينه. ثمّ إنّ السّياقين كثيرا ما يتعاضدان، فإذا كان سياق الموقف يعزّز - في غير حالة- سياق اللّغة إذ يقدره على إيصال المعنى بفضل ما يوفّر له من عناصر وظروف وملابسات تحيط به، فإنّ سياق اللّغة يمكّن سياق الموقف من أن يؤدّي دوره، وأن تكون له مساهمته في تحديد المعنى. وما كان ليتسنّى له ذلك لو لم يحدّ هذا المعنى وقد ورد في سياق لغويّ معيّن.

ويختلف المتصوّران من جهة أنّ سياق اللّغة بابه اللّغة وأنّ سياق الموقف بابه ما وراء اللّغة. ويسلّم هذا الاختلاف إلى اختلاف ثان، وهو أنّ سياق اللّغة سياق محايث، إذ هو يدرس الظّاهرة الدّلاليّة داخل اللّغة وليس خارجها. وأنّ سياق الموقف سياق متسام لأنّه يدرس تلك الظاهرة وهو يستعين عليها بما ليس منها. وليس ذلك بعيب يعاب به سياق الموقف، إذ ليس من طبيعة المعنى أن يكون تحديده مقصورا على سياق اللّغة وأنّ من المعاني ما يعجز هذا السّياق عن ضبطه وما لا يفهم إلّا في إطار المقام الذي يتنزّل فيه، بل إنّ أهمّية سياق الموقف لتتجلّى -على وجه الدّقّة- في "سدّ" هذا العجز. ومن الأمثلة التي توجب حجج هذه الأهمّية أنّ سياق اللّغة لا يمكّنك من أن تفهم من قول القائل" ذهبت أمس إلى الجزائر" أذهب إلى الجزائر العاصمة Alger أم إلى الجزائر الدّولةAlgérie . ولكنّ مكان التّلفّظ هو الذي ينفي ظنّة الالتباس ويقطع الشّكّ باليقين، فإن قال القائل ما قال وهو في البلاد الجزائريّة كان لفظ "الجزائر" يعني عاصمة البلاد ولا يعني غيرها، وإن قاله - وهو خارج البلاد الجزائريّة- حمّل اللّفظ المعنيين وأحتاج القول إلى قرينه تقطع بأنّ المراد من اللّفظ أحد المعنيين، كأن يكون السّامع يعلم أنّ القائل ذهب إلى الجزائر من ألمانيا، فيفهم أنّه قد ذهب إلى الجزائر بلادا، وأنّه ذهب إلى الجزائر من وهران، فيفهم أنّه ذهب إلى الجزائر عاصمة.

ومراعاة مكان التّلفّظ في تحديد معنى الملفوظات هي التي تجعل الملفوظ مقبولا أو غير مقبول من جهة المعنى وإن كان صحيحا من جهة المبنى والتّركيب النّحويّ، ومثال ذلك أن تقول "ذهب إلى روسيا " فيكون القول مقبولا إن كنت - وأنت تقوم بفعل الذهاب- في مكان غير روسيا، ويكون غير مقبول إن كان مكان القول هو روسيا نفسها. ذلك أنّ روسيا هي المكان الذي ينتهي إليه بواسطة فعل الذّهاب فلا يمكن أن تكون في الوقت نفسه المكان الذي ينطلق منه.

ومن الأمثلة على أنّ السّياق اللّغويّ لا يمكن الاعتماد عليه وحده لاستيفاء المعنى المقصود أنّك تقول "زيارة الأحبّة تقوّي أواصر الألفة "، فلا ندري أزرت الأحبّة أم هم الذين زاروك، أي هل الأحبّة زائرون أم مزورون؟ وتقول " إنّ عقاب أحمد كان شديدا "، فلا ندري أحمد عاقب أم عوقب. وتقول "أهل القرية الطّيّبون في عيشة راضية "، فيحتمل قولك معنيين:

* أهل القرية الذين هم طيّبون في عيشة راضية

* الطيّبون من أهل القرية في عيشه راضية

ففي المعنى الأوّل تكون الطّيبة وصفا لكلّ أهل القرية، وتكون العيشة الرّاضية من نصيبهم جميعا. وفي المعنى الثّاني تكون الطّيبة وصفا لبعضهم دون بعض، وتكون العيشة الرّاضية مقصورة على الطّيّبين منهم. وما كان لمعاني هذه الأقوال إن تكون ملتبسة غامضة لو روعي المقام الذي تتنزّل فيه والعناصر الاجتماعية التي يتكوّن منها هذا المقام.

وإنّ المقام ليمكّننا من الوصول إلى فهم المعنى المراد وإن كان ظاهر الملفوظ يدلّ على عكسه، مثل ذلك أن تقول لمن عرف بالبخل " إنّك لجواد" ولمن عرف بالغباء " إنّك لذكيّ". فظاهر القولين فيه وصف بالجود والذّكاء وباطنهما فيه وصف بالبخل والغباء، ومعرفتنا بشخصيّة الموصوف هي التي أرشدتنا إلى المعنى المراد، وهي التي قطعت بعدم احتمال غيره.

وقد تعرّضت نظريّة المعنى السّياقيّة إلى الانتقاد، ومن وجوه ذلك أنّ أصحاب هذه النّظريّة قد أولوا السّياق من الأهمّيّة ما يستحقّ وما لا يستحقّ، أي أنّ الإقرار بأهمّيّته في تحديد المعنى لا يسلّم إلى الإقرار بأنّه لا سبيل إلى تحديد المعنى إلّا باتّباع المنهج السّياقيّ. وإذا كان من الصّواب أن يقال إنّ تسييق الوحدة اللّسانيّة يضيء غير جانب من جوانب معناها. فالقول بأنّ هذا المعنى لا يضاء له جانب إلّا بتسييق الوحدة اللّسانيّة خطأ لا صواب فيه، فإنّ للمناهج الأخرى إسهاماتها في دراسة المعنى وفي مقاربته من زوايا مختلفة.

ومن وجوه الانتقاد أنّ أصحاب المنهج السّياقيّ في دراسة المعنى لا يعتدّون كبير اعتداد بمعنى الكلمات المفردة، والحقّ أنّ التّدلال Signifiance خاصّة من من خواصّ الكلمة، وكلّ كلمة من كلمات اللّغة ولنقل على وجه الدّقّة كلّ علامة لسانيّة من علاماتها لا مفرّ لها من أن تدلّ ولا وجود لعلامات لسانيّة غير ذات مدلول[1]. والمعنى الشّامل للجملة أو الملفوظ ليس من صنع السّياق وحده حتّى ينسب إليه ولكنّه من صنع ما للكلمات المفردة أيضا من معان. ونحن إنّما نركّب الجمل وننتجها ونفكّ سننها ونفهمها لأنّنا على معرفه بمعاني الكلمات المكوّنة لها وأنّنا نركّب الجمل بكلمات لها بعد معانيها المعجميّة[2]. إنّ معاني الكلمات المفردة لتتعاضد وتتضافر لتنتج معنى واحدا هو معنى الجملة أو الملفوظ. ولكنّ هذا المعنى الشّامل لا ينفيها وجودا ولا ينكر ما لها عليه من فضل. وجوهر المسألة «أنّ الكلمة عندما توضع في سياقات مختلفه ليست كالماء الذي يخضع لونه للون إنائه، وإنّما هي كالحرباء تتلوّن بلون المكان الذي تحلّ فيه. إنّ الكلمة أشبه بالحرباء، تمتلك إمكانات معيّنه كلّ منها يبرز في موقعه المناسب، وليست كالماء الذي لا يملك شيئا من تلك الإمكانات، وإنّما يخضع لما يفرض عليه من الخارج» [3]. فكما أنّ تلوّن الحرباء لا ينزع عنها خواصّ الحرباء الذّاتيّة فكذلك وضع الكلمة في سياقات مختلفة لا ينزع عنها خاصّة التّدلال ولا ينفي معناها الإفراديّ. إنّ السّياق يجد الكلمة ولها في حاله الإفراد غير معنى، فيظهر أحد المعاني على سائرها ويوفّر له من القرائن ما يجعله هو المعنى المراد دون غيره، فوظيفته أن يحدّد المعنى الذي يدلّ عليه اللّفظ في جملة من الجمل او في ملفوظ

---

1 -Potier (Bernard) : Le langage, Ed Minuit, Pari, 1973, p 440.

2- Op cit, p 440.

3- علي (محمّد يونس): وصغ اللّغة العربية دلاليا في ضوء مفهزم الدلالة المركزية: دراسة حول المعنى وظلال المعنى، ط1، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس، 1993، ص ص 105-106.

من الملفوظات أوأن يساعد على فهمه فهما صحيحا دقيقا، ولا يراد له أن يحلّ رابطة اللّزوم بين دوالّ الكلمة المفردة ومدلولاتها. وإذا أمكن للسّياق في النّصوص الإبداعيّة أن يكون له - كما رأينا في أبيات رابعة العدويّة- سلطه إنتاج المعاني البكر وتعريف الكلمات تعريفا لا يشهد بصحّته معجم اللّغة، فإنّ سياق النّصّ الإبداعيّ غير سياق اللّغة العاديّة، وأحكامه غير أحكامها. وعلم الدّلالة غير معنيّ به بشكل خاصّ فهو في جوهره مسألة من مسائل الأدب وليس بمسألة من مسائل اللّسانيات وعلم الدّلالة على وجه الخصوص.

ولقد كان فيرث يعي أنّ سياق الموقف لا يمكن ان يكون تبيانا لكلّ شيء يخصّ المعنى، ولذلك فقد عدّه -- كما يقول بالمر- «جزءا من أدوات عالم اللّغة مثله مثل الفصائل النّحويّة التي يستخدمها»[1] أي إنّه أسلوب من أساليب الوصف اللّسانيّ شأنه شأن الصّوت والتّركيب والدّلالة. وهذه الأساليب جميعا هي عنده «صياغات للمعنى، ومن ثمّ فإنّ وصف المعنى بالنّظر إلى سياق الموقف طريقه واحده فقط بها يتناول عالم اللّغة اللّغة. وهي من حيث المبدإ لا تختلف كبير اختلاف عن الطّرق الأخرى التي ينفّذ بها مهمّته»[2]. وهكذا فإنّ فروع اللّسانيّات كلّها تهتمّ بالمعنى وإن سلّمت بضرورة أن تردّ الملفوظات إلى سياقاتها الموقفيّة. وبذلك أمكن الكلام على "المعاني الصّوتيّة" و"المعاني النّحويّة"، بل وعلى "المعاني الدّلاليّة"[3].

ومن أمارات وعي فيرث بحدود سياق الموقف أنّه قد سعى هو وأتباعه إلى تطوير نظريّة المعنى السّياقيّة. فجاؤوا بمفهوم جديد هو مفهوم "المصاحبة Collocation" وجعلوا منه ركنا تقوم عليه نظريّة المعنى الشّاملة. والمصاحبة عند القوم هي "الارتباط المعتاد في الجمل لكلمة ما بكلمات أخرى معيّنة[4]. ومن أمثلة ذلك ما يأتي به فيرث من «أنّ أحد معاني "اللّيل" هو قبول الكلمة مصاحبة "الظّلمة"، وأنّ أحد معاني "الظّلمة" هو قبولها مصاحبة "اللّيل"» [5] . ويمكن لمنهج المصاحبة التّحليليّ أن يؤتي أكله وهو يدرس معنى الوحدات المعجميّ وعلاقاتها الدّلاليّة الخارجيّة والدّاخليّة وغيرها من القضايا الدّلاليّة التي تعجز نظريّة المعنى السّياقيّ أن تحلّها دونه.

6- الخاتمة:

لقد تعرّضنا في هذا البحث إلى نظريّات أربع من نظريّات المعنى، وهي النّظريّة الإشاريّة ونظريّة الدّليل اللّسانيّ والنّظريّة السّلوكيّة والنّظريّة السّياقيّة. وتعدّد نظريّات المعنى واختلافها من تعدّد قضايا المعنى واختلافه. وقد بلغت من ذلك مبلغا يجعل من المحال على منهج واحد أن يقوم بحقّها وأن يكون فيه حلّ لهذه القضايا جميعا. ولعلّنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنّ مناهج دراسة المعنى لا تستطيع - وهي متمازجة متضافرة- أن تكشف عن المعنى في كلّ حجاب وأن تهتك عن "أسرارها" كلّ ستر وأن تفي قضاياها وإشكاليّاتها بحثا بحيث لا يسع الدّارس بعد ذلك إلّا أن يقول متمثّلا - وقد أعياه أن يجد في ميدان الدّلالة مسألة بكرا:

1- بالمر (ف ب): علم الدلالة، ص 77.

2-المصدر السابق، ص 78.

3- Cf : Lyons(John) : Sémantique Linguistique, Paris, Larousse, 1980, p233.

4- Robins (Robert Henry) : Linguistique générale : une introduction, Paris , Armand Colin ,1973, p 63.

5- Firth (J.R) : Papers, p197.

"هل غادر الشّعراء من متردّم". وإذا كان الأمر كذلك، فهل يصحّ في الأفهام أن يدّعي منهج من المناهج أنّه قادر وحده على أن يكفي الدّراسة الدّلاليّة أمرها كلّه، فلا تحتاج معه إلى غيره؟ ولعلّ الأجدى على علم الدّلالة أن يعمل أهله على وضع شعبة يسمّونها منهجيّة علم الدّلالة ويقصرونها على دراسة المناهج الدّلاليّة أي أنّها لا تهتمّ بالدّلالة وإنّما تهتمّ بمناهج دراستها وبعلاقة هذه المناهج بعضها ببعض وتمازجها وتضافرها على القيام بحقّ الدّراسة الدّلاليّة، وتبحث عن سبل الإفادة من العلوم الأخرى بحيث تأتي هذه الإفادة طوعا لا كرها.

لقد أبانت نظريّات المعنى التي تناولناها بالبحث عن أنّ كلّا منها قد ساهم مساهمة لا تجحد في الكشف عن غير جانب من جوانب الظّاهرة الدّلاليّة، وأنّ من مسائل هذه الظّاهرة ما ينقاد إلى منهج دون منهج، فيفيد من أحدها ولا يفيد من الآخر. فهذه النّظريّات ضروريّة كلّها لدراسة الظّاهرة اللّغويّة. وقيمتها في الجانب الذي أبانت فيه عن مصداقيّتها المنهجيّة. وإذا كان لنظريّة من هذه النّظريّات أن تعمل على تطوير أصولها المنهجيّة والمبدئيّة ليقدرها ذلك على أن تتجاوز نطاق حدودها وتقدر منهجها على أن ينقاد له أوفر عدد ممكن من الظّواهر الدّلاليّة، فإنّ ذلك يوجب ألاّ ينسى أصحابها أنّ هدفهم يظلّ رهين التقيّد بمواصفات العلم وشهادة الواقع الموضوعيّة لها، وأنّ كفاية نظريّة من هذه النّظريّات لتحليل جوانب متعدّدة من الدّلالة لا يعني بالضّرورة كفايتها لتحليل جوانب أخرى من الدّلالة. فالخطر أن نذهل عن هذا الأمر وأن نقول بكفايتها المطلقة، فنخرج بذلك من عالم المعرفة العلميّة إلى عالم المعرفة الإيديولوجيّة.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

1- التّوحيدي (أبو حيّان) ومسكويه (أبو علي): الهوامل والشّوامل، تحقيق أحمد أمين وأحمد صقر، القاهرة، 1951.
2- الجرجاني (علي): كتاب التّعريفات، تحقيق إبراهيم الإنباري، ط 1، دار الكتاب العربيّ، بيروت، 1985.
3- الرّازي (فخر الدّين): لوامع البيّنات، شرح أسماء الله تعالى والصّفات، تحقيق طه عبد الرّؤوف سعد، ط1، دار الكتاب العربيّ، بيروت، 1984.
4- السهيلي (أبو القاسم): نتائج الفكر في النّحو، تحقيق محمّد إبراهيم البنّا، ط1، جامعة قار يونس، بن غازي 1978.
5- السّيوطي (جلال الدّين): المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، تحقيق محمّد جاد المولى ومحمّد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمّد البجاوي، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، 1987.
6- الغزالي (أبو حامد): معيار العالم في فنّ المنطق، ط 4، دار الأندلس، بيروت، 1983.

المراجع:

1- أنيس (إبراهيم): دلالات الألفاظ، ط1، القاهرة، 1958.
2- بالمر (فرانك روبرت): علم الدّلالة، إطار جديد، تعريب صبري إبراهيم السّيّد، ط1، الاسكندريّة، 1992.
3- باي (ماري): لغات البشر وأصولها وطبيعتها وتطوّرها، تعريب صلاح العربي، 1970.
4- حمّودة (طاهر سليمان): دراسة المعنى عند الأصوليّين، ط1، الدّار الجامعيّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الإسكندريّة، د.ت.
5- سلدن (رامان): النّظريّة الأدبيّة المعاصرة، تعريب سعيد الغامدي، ط1، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، 1996.
6- سوسّير (فرديناند دي): دروس في الألسنيّة العامّة، تعريب صالح القرمادي ومحمّد الشّاوش ومحمّد عجينة، الدّار العربيّة للكتاب، تونس 1985.
7- علي (محمّد يونس): وصف اللّغة العربيّة دلاليّا في ضوء مفهوم الدّلالة المركزيّة: دراسة حول المعنى وظلال المعنى، ط1، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس، 1993.
8- عمر 'أحمد المختار): علم الدّلالة، ط 3، القاهرة،1991.
9- عياشي (منذر): اللّسانيات والدّلالة، ط1، حلب، 1996.
10- غاليم (محمّد): المعنى والتّوافق، مبادئ لتأصيل البحث الدّلاليّ العربيّ، ط1، الرباط، 1999.
11- غيرو (بيير): علم الدّلالة، تعريب أنطوان أبي زيد، ط1، منشورات عويدات، بيروت، 1986.
12- فندريس(جوزيف): اللّغة، تعريب عبد الحميد الدويخلي ومحمّد القصّاص، ط1، القاهرة،1951.

13-كريستال (دافيد): علم الدّلالة، تعريب مازن الوعر، مجلّة علامات في النّقد ج21، مج 6، جدّة، سبتمبر 1996.

14-ليونز (جون): - اللّغه والمعنى والسّياق، تعريب عبّاس صادق الوهّاب، ط1، بغداد، 1987.

15-ليونز (جون): اللّغه وعلم اللّغة، ج1، تعريب مصطفى التّوني، ط1، القاهرة، 1987.

16-المسدّي (عبد السّلام): مباحث تأسيسيّة في اللّسانيات، ط1، تونس، 1997.

17-المهيري (عبد القادر) والمسدّي (عبد السّلام) و(صمّود حمّادي): النّظريّة اللّسانيّة والشّعريّة في التّراث العربيّ من خلال النّصوص، ط1، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، 1988.

18-مونين (جورج) وكربرات أوركيوني (كاترين): علم الدّلالة، تعريب شعبان بن بو بكر ضمن دراسات لسانيّة، مجلد 3، تونس، 1997.

19-مونين (جورج): مفاتيح الألسنيّة، تعريب الطّيب البكّوش، ط1، منشورات الجديد، تونس 1981.

المصادر والمراجع الأجنبيّة:

1- Aleong (Stanley) : Normes linguistiques, Normes sociales, in la norme linguistique, textes colligés et présentés par Édith Béliard et Jacques Maurais, Gouvernement du Québec, Conseil de la langue française, le Robert, Paris, 1983.

2- Baylon (Christian)et Fabre (Paul) : La Sémantique, Nathan, Paris,1978.2-

3- Bloomfield (Leonard) : Langage, Payot, Paris,1970.3-

4- Chomsky (Noam) : Syntactic Structures, Mouton, the Hague,1957.

5- Chomsky (Noam) : Review of Skinner, B.F, Verbal behavior, in language,1956.

6- Cornulier (Benoit de) : Effets de Sens, Paris, Minuit, 1985. -5

7- Dubois (Jean) et Coll : Dictionnaire de linguistique, Paris, Larousse, 1973.

8- Firth (John Rupert) : Papers in linguistics, 1934-1951, London Oxford university Press, 1957.

9- Firth (John Rupert) : Ethnographic analysis and language, with réferance to Malinowski's views in Firth (ed) : Man and culture, London,1975.

10- Fodor (Jerry) : Semantics, New York, Crowell,1977.-8

11- Germain (Claude) : La notion de situation en linguistique, Université d'Ottawa,1972

12- Greimas (Algirdas Julien) : -Sémantique structurale, Paris, Payot,1966.

13- Greimas (Algirdas Julien): Du sens, Paris, Seuil, 1970.

14- Lyons (John): Firth's theory of meaning, in Bazell (Charles Ernest) et Coll, (eds) : In memory of J.R. Firth, London, Longmans,1966.

15- Lyons (John): Sémantique linguistique, Paris, Larousse, 1980.

16- Martinet (André): La linguistique : guide alphabétique, Paris, Denoel Gonthier, 1969.
17- Mounin (Georges) : Clefs pour la sémantique, Paris, Seghers, 1971.
18- Moutawakil (Ahmed) : Reflexions sur la théorie de la signification dans la pensée Linguistique arabe, publication de la Faculté des lettres et des Sciences humaines de Rabat. Rabat -1982.
19- Ogden (Charles Kay) et Richards (Ivor Armestrong) : The meaning of meaning, London, Paul Kegan , 1923.
20- Prieto (Luis J) : Pertinence et pratique : Essai de Sémiologie, Paris, minuit,1975.
21- Rey (Alain) : Théories de signe et du sens, I et II, Paris Kliencksieck,1973.
22- Robins (Robert Henry) : Linguistique générale : une introduction, Paris, Armand Colin,1973.
23- Saussure (Ferdinand de.) : Cours de linguistique générale, Paris, Payot 1972.
24- Serrus (Charles) : La langue, le sens, la pensée, Paris, P.U.F. 1941.
25- Skinner (Burrhus Frederic) : Verbal behavior, New York Appleton century Crofs, 1957.
26- Slama Cazacu (Tatiana) : Langage et contexte, La Hay, Mouton, 1961.
27- Todorov (Tzvetan) et Ducrot (Oswald) : Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris, Seuil, 1972.
28- Ullmann (stephen): -The Principales of Semantics, Oxford, Basil Blackwell, 1963.
29- Ullmann (stephen): Semantics : an in troduction to the science of meaning Oxford. 1962.